

## المكان بين الضرورة والإمكان

محمد اوبلوهو

الكلية المتعددة التخصصات آسفي، جامعة القاضي عياض مراكش

### مقدمة

لعل من المفاهيم الأكثر تعقيدا وإثارة في الفكر البشري، سنجد من بينها، إن لم يكن أهمها مفهوم المكان. هذا المفهوم الذي هو أصل كل حضور وكل غياب. وبدونه لا يمكن تصور أي وجود كيفما كانت طبيعته. ومن ثم فالقيمة الفلسفية والوجودية لهذا المفهوم دقيقة ومحورية، بل وأساسية وتأسيسية بالنسبة لأي بناء نظري تأملي علمي أو عملي.

وهذا المفهوم له تعالقات عديدة ومعقدة، بحيث ترتبط به مجموعة من الألفاظ التي تتقاطع معه وتقترب منه أحيانا من الناحية الدلالية، بل وقد تتطابق معه أحيانا أخرى. وذلك مثل: الفضاء والمجال والعالم والحيز والحقل والكون... إلى غير ذلك من الألفاظ الأخرى. هذه الألفاظ التي لا نكاد نجد لها في أحيان كثيرة تحديدا دقيقا دون استحضار مسبق لتصور ما عن المكان. والواقع أن هذه الألفاظ ومجموعة من المقولات الأخرى، سواء منها اللغوية أو المنطقية فهي جميعها تحيل على بعضها البعض، وذلك بحسب سياقات الاستعمال أو الخلفية النظرية والفلسفية التي توظف في إطارها.

وعليه فكل الحقول المعرفية وكل النظريات كيفما كانت طبيعتها، وإلا وتقدم لنا تصورها الخاص الضمني أو الصريح لمفهوم المكان كأولية ومبدأ أساس. والذي سيشكل أحد الأركان الضرورية لكل نموذج نظري باعتباره من المبادئ الضرورية للفكر. لكن ما الذي سيجعل هذا المفهوم يكتسي كل هذه المكانة، وأين تكمن قوته وضرورته؟ وهل له وجود مستقل عن الأشياء التي يحتويها؟ وهل المكان ذو طبيعة نسبية أو مطلقة؟ والحقيقة أن التأمل في هذا المفهوم يطرح إشكالا حقيقيا حول ماهيته وطبيعته، هل هو حقيقة مادية أو صورية، أو أن له طبيعة خاصة به. والواقع أن هذه الإشكاليات جميعها وغيرها قد تمت إثارتها منذ زمن بعيد.

وحتى ندرك مكانة المكان في الفلسفة والفكر، لا بد أن نستحضر هنا بالخصوص، الفيلسوف الألماني الكبير ايمانويل كانط (1724-1804) Emmanuel Kant الذي كان يعتبره مفهوما أساسيا ومن مبادئ العقل الخالص إلى جانب مفهوم الزمان، وقد خص كانط هذا المفهوم بدراسة تحليلية عميقة، يمكن الإطلاع عليها من خلال كتابه الرئيس "نقد العقل الخالص".

والواقع أن كل نظرية رياضية هندسية إلا ولها تصورها الخاص للمكان، كما أن الفيزياء تقدم لنا أيضا تصورات متعددة للمكان، بحيث كل نظرية فيزيائية إلا ولها بالضرورة، أيضا إطارا نظريا يحدد لها تصورا يميزها للمكان. وإلى جانب العلوم والفلسفة بدورها وضعت تصورات ونظريات متعددة بخصوص المكان. ولا يمكن أيضا أن نغفل عن إسهامات العلوم الإنسانية بمختلف فروعها في إثراء هذا النقاش حول المكان. وعموما فكل

حقل معرفي وكل نظرية، إلا ولها تصور لها الخاص للمكان. ومن ثم فمن الصعوبة بمكان حصر كل هذه النظريات والإحاطة بها، وبالتالي تقديم تصور دقيق وموضوعي لكل منها عن المكان.

## 1- الدلالة المعجمية واللغوية لمفهوم المكان:

في البداية سنحاول أن نقدم بعض التعاريف المعجمية للمكان وللألفاظ التي ترتبط به دلاليا، معتمدا في ذلك على الدلالات الواردة في "المعجم الوسيط"<sup>1</sup> على وجه الخصوص. وهكذا، ففي اللغة العربية يشير لفظ المكان إلى الموضع أو المنزل<sup>2</sup>. أما الفضاء فيعني لغة: "ما اتسع من الأرض والخالي من الأرض، ومن الدار ما اتسع من الأرض أمامها". ويعني كذلك المكان الواسع، وكل ما يعلو الأرض، أي الفضاء الخارجي<sup>3</sup>.

أما المجال فيعني لغة: "موضع الجولان، يقال: لم يبق له مجال في الأمر". ويطلق أيضا على المكان وعلى الموضع. وهو المنطقة والنطاق<sup>4</sup>. أما الموضع فهو المكان<sup>5</sup>.

أما مدلول لفظ العالم لغة فهو مجموع كل شيء يوجد على وجه البسيطة، مثل عالم الحيوان عالم النباتات عالم السياسة، وجاء في المعجم الوسيط الخلق كله. وقيل كل ما حواه بطن الفلك، وكل صنف من أصناف الخلق، كعالم الحيوان وعالم النبات وجمعه عوالم<sup>6</sup>. أما الحيز فهو كل جمع منضم بعضه إلى بعض. ويطلق على المكان أيضا وكل المرافق والمنافع التي هي منضمة إلى البيت<sup>7</sup>.

أما بالنسبة للحقل فيعني لغة قراح طيب يزرع فيه. ويقال أيضا للموضع الجادس أي البكر الذي لم يزرع قط<sup>8</sup>، ونجده يستعمل في سياقات مختلفة الحقل الشاسع وحقول البترول وحقل التجارب وهي كلها استعمالات معاصرة لهذه اللفظ. أما الكون، فيعني لغة الوجود المطلق العام<sup>9</sup>، ويستعمل في الفيزياء للإشارة إلى كل شيء موجود من أصغر الذرات إلى أكثر الأجرام الفلكية بعدا. كما يطلق على هذا الفضاء الواسع وما به من أجرام سماوية ما علمه الإنسان وما لم يعلمه.

أما إذا بحثنا في مقابلات هذه الألفاظ في معاجم اللغة الفرنسية. وهنا سأعتمد على قاموس: Larousse<sup>10</sup>. فلفظة lieu تعني موقعا محددا لشيء ما، وغالبا ما يتم الإشارة إليه باسم ما حتى يمكن تمييزه<sup>11</sup>. وتشير لفظة espace التي تتخذ معاني متعددة، فهي تستعمل

<sup>1</sup> - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1379 هجرية، 1960م.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه.

<sup>4</sup> - المرجع نفسه.

<sup>5</sup> - المرجع نفسه.

<sup>6</sup> - المرجع نفسه.

<sup>7</sup> - المرجع نفسه.

<sup>8</sup> - لسان العرب، ابن منظور، باب الحاء.

<sup>9</sup> - المعجم الوسيط.

<sup>10</sup> - Le Petit Larousse illustré. Edition 2019.

<sup>11</sup> - Larousse

للدلالة على الخاصية المميزة للشيء حتى يكون له حيز وحجم ويكون قابلا للقياس. وتدل كذلك عن مساحة معينة تفصل بين شيئين، أو تكون محلا لشيء ما. كما تشير إلى المجال الذي يمكن أن تتم فيه مجموعة من الأنشطة. وتطلق هذه اللفظة أيضا على الفضاء الخارجي والذي توجد به الأجرام السماوية. كما تدل الى جانب ذلك على مجموعة من الاستعمالات المختلفة في الهندسة والرياضيات والطب والموسيقى<sup>12</sup>.

أما لفظة place فلها مجموعة من الدلالات منها: الفضاء العام الذي تحيط به مجموعة من البنايات. كما تشير هذه اللفظة إلى المكان الذي يحتله شخص أو يوجد به شيء ما. وكذلك تدل على المكان المفترض الذي ينبغي أن يوجد به شيء ما، أو مكان مخصص لغرض أو شخص محدد... الخ<sup>13</sup>. وهناك أيضا لفظة أخرى لها علاقة بالمكان تستعمل في اللغة الفرنسية وهي l'endroit، وهو المكان المحدد. ولهذه اللفظة استعمالات متعددة أخرى بحسب المعجم نفسه<sup>14</sup>. كما نجد لفظة étendue والتي تشير بدورها الى الامتداد والمساحة.

أما لفظة le monde فهو مجموع ما هو موجود على نحو مادي وواقعي، كما تستعمل اللفظة للدلالة على معان أخرى متعددة<sup>15</sup>. وأخيرا هنالك l'univers وتعني أيضا مجموع الأشياء الموجودة، كما تشير إلى المكان والمحيط والكوسموس<sup>16</sup>.

والحقيقة أنه لا يمكن الإحاطة أو حصر كل الألفاظ التي تتقاطع أو تتداخل مع دلالات لفظة المكان، سواء في اللغة العربية أو ما سواها من اللغات الأخرى، فضلا على أن المكان من حيث ماهيته، له أبعاد ومستويات وتجليات مختلفة. ويلاحظ أيضا أن كل هذه الألفاظ التي أتينا على ذكرها، لها بدورها استعمالات متعددة، سواء في حقل الرياضيات أو في الفلسفة والادب والعلوم الإنسانية أو في مجالات أخرى.

## 2- مفهوم المكان عند أرسطو وهيمنته على الفلسفة التقليدية

من البديهي أن تكون لهذا التداخل والعمومية التي يكتسبها المكان من حيث دلالاته اللغوية تأثير على تصورنا لحقيقته وماهيته. وبالفعل فقد بدا ذلك واضحا عند كل الفلاسفة الذين حاولوا تناوله، والبحث في طبيعته وخصائصه.

ومن بين النظريات الفلسفية التي استطاعت أن تقدم تصورا للمكان والذي سيظل مهيمنا لقرون، سجد التصور الأرسطي. فمن المعلوم أن أرسطو قد قسم العالم إلى مستويين عالم ما فوق القمر وعالم ما تحت القمر، ولكل منهما خصائصه وعناصره ومكوناته. فعالم ما فوق القمر هو عالم الكمال والثبات، أما عالم ما تحت القمر فهو عالم الكون والفساد، وكل ما فيه سيؤول إلى زوال، وبالتالي فهو ينتقل ما بين طور التكون والنشوء إلى طور النقص والضمور والنهاية.

<sup>12</sup> - idem.

<sup>13</sup> - idem.

<sup>14</sup> - idem

<sup>15</sup> - idem.

<sup>16</sup> - idem.

ويمتد عالم ما فوق القمر من القمر حتى النجوم المعلقة في قبة السماء. هذه الأخيرة التي تتشكل من مادة لطيفة هي مادة الأثير، وهي غير قابلة للفساد وقوانين الحركة في هذا العالم غير تلك المعروفة في عالم ما تحت القمر. أما عالم ما تحت القمر فيتكون من العناصر الأربعة المعروفة وهي: الماء والهواء والنار والتراب.<sup>17</sup>

والمكان أيضا له بعد منطقي بحسب تصور أرسطو وذلك إلى جانب دلالاته الطبيعية والوجودية. فمن المعلوم أن أرسطو اعتبره من بين المقولات العشر. وهذه المقولة يطلق عليها البعض الآخر الأين. وعليه فالجوهر لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن ينفصل عن المكان.<sup>18</sup>

وقد عرض أرسطو أيضا لمفهوم المكان في الكتاب الرابع من "الطبيعة"، وذلك عندما حاول تفسير الحركة. فالحركة عند أرسطو لها ستة اتجاهات هي: الفوق والأسفل واليمين والشمال والأمام والخلف. وقد تحدث أرسطو عما سيسميه بالمكان الطبيعي، حيث يعتقد أن كل جسم له مكان طبيعي يستقر فيه، إذا لم يكن هنالك ما يعيق اتجاهه أو حركته. ويعتقد أيضا أرسطو أن جسمين أو أكثر لا يمكن أن تستقر في مكان واحد، فكل جسم مكان. وإذا حل جسم ما في مكان، فلا يمكن أن يحل فيه جسم آخر.

ويميز أرسطو بين نوعين للمكان فهناك من جهة المكان المطلق الذي يحتوي كل الأجسام، وهناك من جهة ثانية المكان الخاص بكل جسم على حدة؛ وهو الذي أشار إليه أرسطو عندما ربطه بالحركة. وفي هذا الكتاب أيضا يشير إلى نفي وجود الفراغ.<sup>19</sup>

وقد اعتبر الكسندر كوايري (1892-1964) Alexandre Koyré أن ميلاد الفكر العلمي الحديث اقتضى التخلص من مفهوم المكان الذي وضعه أرسطو، واستبداله بمفهوم جديد للمكان يكون ذو طبيعة هندسية بالأساس، بحيث سيتخذ هذا المفهوم الجديد للمكان شكلا لامتناهيا، وذلك عوض ذلك المكان الذي يستند إلى تصور يقوم على أن العالم محدود. وهو ما سعت فلسفة أرسطو إلى تكريسه.<sup>20</sup>

هنا يتضح أن تغيير تصور المكان الذي استندت إليه الفلسفة بل الفكر التقليدي عموما، والذي حصر الوجود في عالم محدود، عناصره ومكوناته وأبعاده معروفة ومحددة، كان ضروريا. وأن التحول الجوهري والمرتبط بميلاد الفكر العلمي اقتضى التخلص تماما من هذا التصور التقليدي للمكان. هذا التصور الذي لعب أرسطو والفلسفة الأرسطية دورا أساسيا في تكريسه لقرون طويلة.

### 3- إشكالية المكان في الفكر الفلسفي الحديث

<sup>17</sup> - « La formation des concepts scientifiques : le mouvement », in *Philosophie.ac-versailles.fr*, J. P. Guillot 1996. p. 1.

<sup>18</sup> - *Catégories*, Aristote, Ed. Seuil, coll. « Points Essais », 2002.

<sup>19</sup> - *La physique*, Aristote, livre IV ; Ed, vrin 2012.

<sup>20</sup> - *Du Monde clos à l'univers infini*, Alexandre Koyré, Paris, 1986. P38.

لقد اتخذ المكان بعدا جديدا مع فلسفة ديكارت (1596-1650) René Descartes الذي يعتبر أبا للفلسفة الحديثة. فقد كان موضوع المكان من بين المفاهيم التي حاول أن يؤسس بشأنها تصورا جديدا. من هذا المنطلق سيتخذ ديكارت من مفهوم الامتداد خاصية أساسية للمكان l'étendue.<sup>21</sup>

لكن أهم ما طبع النقاش في هذه المرحلة الجديدة التي انطلق فيها التفكير من جديد حول المكان انطلاقا من مفاهيم وأسس جديدة، هو ذلك النقاش الحاد بين أبرز علماء القرن السابع عشر الذين يعود لهم الفضل في بناء الفيزياء الحديثة. ويتعلق الأمر هنا بلايبنتز (1646-1716) Gottfried Wilhelm Leibniz من جهة، ونيوتن (1642-1727) Isaac Newton من جهة ثانية.

لقد كان نيوتن يعتقد في وجود مكان مطلق حقيقي مستقل ومتميز ومتجانس وغير متحرك. وهو ما كان يرفضه لايبنتز معتبرا أنه لا وجود لمكان مطلق مستقل عن الأجسام وعن المادة. هذا الأخير الذي يؤكد في الوقت ذاته أنه لا يمكن أن نطابق بين المكان والمادة. وهكذا، ففي غياب الأشياء والمادة سيصبح المكان في نظر لايبنتز مجرد إمكان لا غير. وهذا ما يرفضه نيوتن الذي يعتبر المكان ضرورة مطلقة.

ويضيف لايبنتز بأن المادة تمثل للمكان ما تمثله الحركة للزمان. فكما أن الحركة مختلفة عن الزمان رغم لزوم بعضهما لبعض، فكذلك الشأن بالنسبة للعلاقة الموجودة بين المكان والمادة. فلو لم تكن هنالك موجودات مادية ما كان هنالك زمان ولا مكان. وبناء على هذا التصور سيذهب لايبنتز إلى نفي الفراغ الذي يؤمن نيوتن بوجوده جنبا إلى جنب مع المكان المطلق.

ويرى لايبنتز بأن أولئك الذين يعتقدون بوجود الفراغ، إنما ينطلقون من خيالهم، وليس من تحليل عقلي منطقي. وهو ما ينطبق على فكرة المكان المطلق التي ليست في اعتقاده سوى فكرة خيالية. وهذه الأفكار التي تبناها لايبنتز بخصوص عدم وجود مكان مطلق وبالتالي عدم وجود للفراغ، إنما تعود إلى مبدأ فلسفي اعتمده، وهو مبدأ السبب الكافي. هذا المبدأ يعرفه على النحو الآتي: لا شيء يحصل في الوجود إن لم يكن هنالك سبب يبرر وجوده على هذا النحو وليس على نحو آخر.

ويرى أيضا لايبنتز في معرض رده على كلارك Samuel Clarke، وهو أحد المدافعين عن آراء نيوتن، وكان يتبنى أيضا أطروحاته فيما يتعلق بوجود مكان مطلق، أن الله الذي هو خالق الكون لن يخلق شيئا ليس من وراءه غاية محددة. فالمكان الوحيد الموجود هو ذلك المكان المادي. أما المكان المطلق فلا يعدو أن يكون اذن سوى مجرد خيال.

إن وجود مكان مطلق من منظور نيوتن يستتبع بالضرورة وجود مكان لا يوجد فيه أي شيء، أو بمعنى آخر وجود فراغ. وهذا معناه حسب لايبنتز هو خلق أشياء دن غاية.

<sup>21</sup> - *Principes de la philosophie*, Descartes, IIe partie, article 10 et 11.

وهذا في نظره هو العبث. وسنجد عند لايبنتز تمييزا بين ثلاثة مفاهيم وهي المكان lieu والموضع place والفضاء espace.<sup>22</sup>

فبالنسبة للموضع فهو الذي تحصل فيه حركة الأجسام التي يمكنها أن تنتقل من مكان إلى آخر. أما الفضاء فهو مجموع هذه المواضع. وفكرة الفضاء والموضع تتكون لدينا بفعل التجربة. وهنا تبدو نظرية لايبنتز قريبة نوعا ما من أرسطو الذي كان بدوره يرفض الفراغ ويميز بين مفهومين للمكان، وهما: مكان نسبي خاص، وآخر عام مشترك. ويبدو أن هذا المكان الخاص الذي تحصل فيه حركة الأجسام هو المقصود بالموضع.<sup>23</sup>

سينطلق كانط من هذا النقاش حول المكان والذي خاض فيه كل من نيوتن ولايبنتز، وكذلك من النتائج التي خلصا إليه. وهنا سنجد يرفض أن يكون المكان مشتقا من التجربة، لأن أي تجربة من مقتضياتها وجود مكان ومن ثم اعتبره مبدأ قديما. وهكذا يمكن تحديد المكان عند كانط من خلال أربعة خصائص هي كالتالي:

- أولا، أن مفهوم المكان لا يمكن أن يكون مستمدا من التجربة.  
- ثانيا، أن المكان هو تمثيل عقلي قبلي ضروري وهو شرط الإمكان بالنسبة لأي ظاهرة ممكنة، وإذا كان من الممكن تمثيل المكان من دون وجود للأشياء؛ فإنه من المستحيل تمثيل الأشياء من دون وجود للمكان.

- ثالثا، يرفض كانط أن يكون المكان عبارة عن مفهوم، لأن هذا الأخير يقتضي وجود عناصر بسيطة أولية يتشكل منها ذلك المفهوم، كما أنه لا يوجد هنالك أجزاء للمكان تكون بسيطة يمكن انطلاقا منها أن نبني تصورا عاما عن المكان في شموليته.

- رابعا، كما يعتبر كانط أن المكان لا يمكن أن يكون تصورا، لأنه ليس مجرد تمثيل بسيط لخاصية مشتركة لمجموعة من الأشياء، فهو من حيث ماهيته ذو طبيعة متعددة من التمثيلات، إنه إذن مفهوم كوني له طبيعة خاصة متميزة. وهكذا يرى كانط أن تصور الأشياء والحدوس تقتضي بالنسبة للذات المدركة وعلى نحو قبلي تلك العلاقات المرتبطة بالمكان. وهي شرط ضروري لأي تجربة ممكنة.

لكن كانط لا يجعل من المكان شرطا ضروريا لوجود الأشياء في ذاتها، ولكنه يجعله شرطا أساسيا لإدراك الذات لتلك الأشياء. ومن ثم فهو مبدا عقلي قبلي مطلق. ويعتقد أيضا كانط أن قدرتنا على معرفة الاتجاه يرجع بالأساس إلى هذا الإدراك القبلي الذي نمتلكه بخصوص المكان مما يجعله يبدو لنا على نحو منظم.<sup>24</sup>

لا شك أن التأملات الفلسفية الكانطية بخصوص مفهوم المكان كانت حاسمة، وذات تأثير واضح بالنسبة لكل الفلسفات التي ستأتي بعد كانط، وذلك نظرا لعمقها ودقتها وموقعها

<sup>22</sup> - *Correspondance Leibniz-Clarcke*, présenté par André Robinet ; Presse Universitaire de France ; 1991.

<sup>23</sup> - *L'Espace et la pensée philosophique*, Michel Denis, dans petit traite de l'espace, 2016, page 15-28.

<sup>24</sup> - *Des conceptions de l'espace*, Jean-François Pradeau, Espaces Temps 62-63, 1996



ضمن منظومته الفلسفية ككل. ولا أحد يستطيع أن ينكر الدور الكبير لفلسفة كانط في الفلسفة المعاصرة. فكيف تعاملت هذه الأخيرة مع الإرث الكانطي بخصوص مفهوم المكان؟

#### 4- الفلسفة المعاصرة والمقاربة الفينومينولوجية للمكان

تعتبر الفينومينولوجيا من أهم النظريات التي ظهرت في الفلسفة المعاصرة واستطاعت أن تقدم تصورا جديدا للمكان. وفي هذا الإطار حاول ادموند هوسرل Edmund Husserl (1859-1938) فهم كيفية تشكل المكان الموضوعي ذو الأبعاد الثلاثة داخل الوعي الإنساني. وما هي المرحلة التي يتم فيها أول معطى لحادثة يمكن اعتباره ذو طبيعة مكانية. وهنا يتساءل هوسرل هل المكان هو معطى حسي أو هو بمثابة نتيجة لاتجاه قصدي.<sup>25</sup>

فهوسرل الذي سيحاول توضيح عملية تشكل المكان، سيستبعد الطرق المعتمدة في مجال الفيزياء والهندسة التي لا تأخذ بعين الاعتبار المكان الذي نحيا فيه. فقد كانت غاية هوسرل بالأساس، هي فهم لماذا العالم هو عالم. بمعنى أنه ليس فقط مجرد أحاسيس غير منظمة. وبما أن المكان يبرز من خلال الموقف الطبيعي، بكيفيتين مختلفتين: إما على أنه مكان بين شيئين، وإما على أنه مكان داخل شيء؛ وهذا ما سيقود هوسرل انطلاقا من ظاهرة الشيء ليحاول فهم ما هو "مكاني" spatial.<sup>26</sup>

وهكذا يقدم هوسرل الفرضية التالية، فحيث إن الذات تمتحن في جسدها فهي تملك القدرة على إدراك الشيء ممتدا في المكان. وهكذا فإن ظهور الأشياء المادية وإدراك الإنسان لجسده هما مترابطين بعضهما ببعض. وهذا الارتباط هو أصل فكرة المكان.<sup>27</sup>

وقد بسط هوسرل نظريته حول المكان في كتابه: "الشيء والمكان" Chose et espace وهو الكتاب الذي نشره سنة 1907.

وفي نفس الاتجاه الذي سلكه هوسرل، سيرفض ميرلوبونتي Maurice Merleau-Ponty (1908-1961) بدوره تناول الفيزيائي والهندسي للمكان؛ منتصرا للتصور الفينومينولوجي الذي يجعل من المكان عنصرا أوليا وضروريا. فالمكان الهندسي لن يكون له وجود أو معنى إلا من خلال المكان الفينومينولوجي الأساسي والأولي، أي ذلك المكان الذي يجد مبدأه وضرورته في الجسد. والذي بدونه لا معنى ولا وجود لأي شيء في هذا الوجود. فالمكان ليس في النهاية سوى تلك العلاقة التي تربط الجسد بما يحيط به. فمن خلال هذا الجسد سيتحدد القرب والبعد الأعلى والفوق الشمال واليمين. وهنا يميز ميرلوبونتي بين الجسد باعتباره موضوعا في المكان، والجسد كماهية فينومينولوجية باعتباره أصل كل معنى وكل حقيقة وكل وجود. وعليه فالمكان ليس في النهاية سوى ذلك الالتقاء بين الجسد والوجود. ولذلك فأن تكون جسدا، إنما هو في الواقع أن تكون مربوطا ومشدودا إلى عالم ما.

<sup>25</sup> -« Espace ou pensée : l'origine transcendante de la spécialité chez Husserl » Jean-François Lavigne, 1994, Epokhè, Jérôme Million, n 4, p.117.

<sup>26</sup> - Idem, p. 118.

<sup>27</sup> - Husserl et l'énigme du monde, Emmanuel Housset, Seuil, coll. « oints », 2000, p. 200.

وهذا الجسد لا يتدخل فقط لضمان وجود هذا المكان، إنه مؤسس له، ومحدد لتفاصيله ومشكلا لبنيته التصورية. وهكذا يعتقد ميرلوبونتي أن التجربة تكشف لنا على أن هنالك خلف هذا المكان الموضوعي الذي يوجد فيه الجسد مكانا آخر أوليا بحيث لا يشكل المكان الأول سوى ذلك الغلاف الذي يحيط بوجود الجسد.<sup>28</sup>

إن التجربة الفينومينولوجية ستكشف عند ميرلوبونتي عن تلك المقولات التقليدية المرتبطة بالمكان مثل الطول والعرض، واليمين والشمال، والأعلى والأسفل، ويضيف مقولة أخرى هي العمق la profondeur الذي سيعبر به عن ذلك البعد الأولي الأساسي للمكان.<sup>29</sup> لقد تناول ميرلوبونتي إشكالية المكان في أحد أهم مؤلفاته: "فينومينولوجية الإدراك" phenomenologie de la perception وقد بين من خلال هذا المؤلف على أن المكان لا يمكن أن يكون حالة عقلية يخضع تحليلها وفهمها لقواعد المنطق بل هي أساسا مرتبط بالإدراك من خلال الجسد الذي يعتبره ميرلوبونتي المبدأ الأول لكل إدراك. وعليه فالمكان حقيقة متعددة ومختلفة باختلاف وتعدد الأجساد وإدراكاتها.

ومن الفلاسفة الذين توقفوا أيضا عند مفهوم المكان هنالك الفيلسوف الألماني مارتن هايدكر (1889-1976) Martin Heidegger الذي تناول هذا الموضوع في كتابه الشهير "الوجود والزمن". وهنا سيتساءل هايدكر هل يكفي النظر إلى المكان على أنه مجرد حاو متجانس له أبعاد ثلاث؟

فكما ميز هايدكر بين نوعين من الزمن، أي الزمن الأصلي والزمن الخالص، فأبضا يوجد هنالك نوعان من المكان هما المكان الأصلي والمكان الخالص بحيث يعتبر هذا الأخير مشتقا من الأول وهو الذي له طبيعة هندسية. فانطلاقا من مفهوم الوجود-في-العالم l'être-au-monde فلن تكون هنالك أية ضرورة للبحث في الاشكال التي يتخذها وجود الانسان في هذا العالم من أجل التفكير في ماهية المكان.<sup>30</sup>

فليس هنالك من منظور هايدكر ذات خالصة ومتعالية عن هذا العالم، كما هو الحال عند كانط أو هوسرل ستدرك هذا العالم انطلاقا من قصديتها. من هذا المنطلق يرتب هايدكر علاقة جديدة بين المكان والعالم. فالمكان مشتق من الوجود-في-العالم الذي لا ينفصل عن dasein. واضح إذن أن هايدكر منشغل بذلك المكان اليومي المحكوم بالضرورات الوجودية للإنسان بما يعنيه ذلك من معاناة الحياة وقلقها وتوتراتها المختلفة. إنه إحساس وشعور خاص. فكل له مكانه الذي يلزم عن ذلك العالم الخاص به. ولا مجال هنا للحديث عن المكان كفكرة مشتركة، أو للمكان الهندسي الفيزيائي.

إلا أن فلسفة هايدكر كما عرضها من خلال كتابه الرئيس: "الوجود والزمن" الذي صدر سنة 1927 يبدو من خلاله أن مفهوم المكان، لا يرقى إلى مرتبة الزمان، بحيث ذهب

<sup>28</sup> - « L'Eidétique de l'espace chez Merleau-Ponty », Archives de philosophie, Miclos Vito, 2008/3. (tome71) , 2008 , p : 12

<sup>29</sup> - Idem, p : 5-6.

<sup>30</sup> - Lire être et temps de Heidegger , Marlène Zarader , , Paris, j. Vrin, coll. « histoire de la philosophie », 2012, p.174.



إلى إضفاء بعدي زماني على المكان. وهذا ربما ما حاول هايدكر نفسه تجاوزه سنة 1962. ويمكن الرجوع بخصوص هذه المسألة إلى كتاب: Heidegger et le problème de l'espace.<sup>31</sup>

إن هذا المنظور الفينومينولوجي للمكان، والذي سيهيمن في الفلسفة القارية، قد ألهم عددا من الفلاسفة، جعلهم يبتعدون عن ذلك المفهوم التقليدي للمكان. وهنا سنتدرج بوضوح كل من تصور هوسرل وهايدجر وميرلوبونتي... وغيرهم من الفلاسفة المعاصرين.

## خاتمة

يتبين إذن مما سلف، أنه يمكن أن نميز بين نظريتين أساسيتين عن المكان ظلتا تحكمان الفكر البشري. الأولى لها أصل هندسي رياضي والأخرى لها أصل فينومينولوجي، وكلاهما حاضر بقوة في الفكر والوعي البشريين. فالمكان كفضاء هندسي رياضي له دوره وضرورته في الحياة اليومية للإنسان، فهو مكان موضوعي كوني. كما أن المكان باعتباره حقيقة فينومينولوجية والذي سيحيل على حقيقة ذاتية خالصة، له أيضا أهميته وضرورته ويظل بذلك ماهية موجهة قصديا، لا يمكن فصلها أبدا عن الوعي الخاص لكل فرد.

وهنا سيتجلى ذلك البون الواضح بين المستويين. فالأول له أصل موضوعي مادي خارجي مشترك، أما الثاني فينطلق من الذات كبعد خالص من أبعادها، بحيث يمكن القول: أن لكل ذات مكانها الخاص الذي تحيا به وفيه.

وخلاصة القول، أنه لا يمكن الإحاطة بكل النظريات الفلسفية وبتفاصيلها ضمن هذه المداخلة. فهي لا تعدو أن تكون مجرد سرد لأهم اللحظات في تاريخ الفلسفة حول هذا المفهوم الإشكالي، وذلك على نحو مختزل. وهنا يبدو أن هذا المفهوم ظل على الدوام مجالا خصبا للتأمل الفلسفي، فهو مجال مفتوح للفكر يلاحقه دون أن يظفر بالإمساك به لكن نستشعر ضمنا وجوده التاوي خلف كل حقيقة وكل وجود. وبذلك يمكن اعتباره إذن شرط كل إمكان.

## المراجع

لسان العرب، ابن منظور، باب الحاء.

المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1379 هجرية، 1960م.

Aristote, Catégories, Ed. Seuil, coll. « Points Essais », 2002

Aristote, la physique, livre IV ; Ed, Vrin , 2012.

Correspondance leibniz-clarcke, présenté par : André Robinet ; Presse Universitaire de France ; 1991.

Denis, Michel. L'espace et la pensée philosophique, Dans PETIT TRAITE DE L' ESPACE, 2016. Pp :15-28.

Descartes, René. Principes de la philosophie, Iie partie, article 10 et 11.

Franck, Didier. Heidegger et le problème de l'espace, Editions de Minuit ; 1986.

Guillot, J. P. « la formation des concepts scientifiques : le mouvement », sur philosophie.ac-versailles.fr, 1996.

Housset, Emmanuel. Husserl et l'énigme du monde, Seuil, coll. « Points », 2000.

<sup>31</sup> - Heidegger et le problème de l'espace, Didier Franck, collection arguments, 1986.

Koyré, Alexandre. Du monde clos à l'univers infini, Gallimard, paris, 1988.  
Lavigne, Jean-François. « Espace ou pensée : L'origine transcendantale de la spécialité chez Husserl », Epokhè, Jérôme Million, n 4, 1994.  
Le petit Larousse illustré. Edition 2019.  
Miklós Vito, L'eidétique de l'espace chez Merleau-Ponty ;; archives de philosophie ; 2008 /3 ; tome 71 ;pages 407 à 438.  
Pradeau, Jean-François. Des conceptions de l'espace, Espaces Temps, 1996 pp. 50-58.  
Zarader, Marlène. Lire Etre et Temps de Heidegger, Paris, J. Vrin, coll. « histoire de la philosophie »; 2012.